أسباب تركيز الرحلة العلمية الجزائرية على تونس.

أ: علي بن حراث
المدرسة العليا للأساتذة – قسنطينة

الملخص:

تنوعت أشكال التواصل بين الجزائر وتونس عبر قرون من الزمن وسأحاول في هذا الموضوع التركيز على الجانب الفكري؛ لما له من التأثير القوي في استمرارية العلاقات وقوتها وتجذّرها وقيامها على أسس معنوية تدعمها آليا الأسس الجغرافية والاجتماعية والعلاقات المادية وهو ما كانت له انعكاساته الإيجابية على مستقبل العلاقات بين المجتمعين في القطرين، وذلك من خلال معالجة موضوع: "أسباب تركيز الرحلة العلمية الجزائرية على تونس"

الكلمات المفتاحية: التواصل،العلاقات،الجزائر، تونس،الرحلة العلمية

مقدمة:

لا يختلف اثنان في القول بأن العلاقات الجزائرية – التونسية تميزت عبر التاريخ بالمتانة والاستمرارية وذلك بفعل تضافر مجموعة من المعطيات ولعلّ أهمها العاملين الحضاري والجغرافي، وبهدف إبراز جانب من تلك العلاقات نعرّج على الرحلة العلمية الجزائرية نحو تونس خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

تعكس الهجرة الجزائرية نحو مختلف الأوطان بعد الغزو وضعا مستجدا، وأبعادا عدة منها أنها كانت تعبيرا عن الرّفض، وهروبا من سياسة المحو التي طبّقها الاستعمار الفرنسي في الجزائر بتركيزه على الجانب الحضاري، ومن ثم تسهيل عملية السيطرة على مقدرات الجزائر المادية مما دفع بالجزائريين إلى اتخاذ الهجرة كشكل من أشكال المقاومة، وعليه فهي هجرة لم تكن مرفقة بنية قطع الصلة تماما بالوطن وبالأهل بل كانت في أغلبها شكلا من أشكال المقاومة، خاصة ما تجلّى في الأفواج الكثيرة للطلبة الذين اتجهوا صوب تونس وغيرها من الأوطان فرادى وزرافات، وذلك ما عبّر عن تمسّك الجزائريين بدينهم ولغتهم، وتأسيا بالهجرة النبوية وعملا بما جاء في القرآن الكريم والأحاديث النبوية من دعوة لطلب العلم وشدّ الرحال إلى مواطنه وإن باعد ذلك عن حنان الأهل ودفء حضن الوطن.

والهجرة تختلف مفاهيمها من مجتمع لآخر[1] كما تختلف أهدافها، فمن الهجرة ما كان الهدف منها طلب القوت والبحث عن الرزق من خلال البحث عن العمل أو بممارسة التجارة، ومنها ما كان هدفها البحث عن الأمن والاستقرار، ومنها ما كان هدفها طاعةٌ وعبادةٌ لله كالحج أو الجهاد أو طلب العلم باعتبار هذا الأخير إحدى أسمى العبادات.

---

[1]– عبد الحميد زوزو، **الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919–1939)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، الجزائر، 1985، ص 11، 12.

بناء على هذه الحقائق نجد بأن الهجرة الجزائرية لم تكن تخلوا من هذه الأهداف وعلى وجه الخصوص الهدف الثالث الوارد أعلاه حيث كانت أعداد كبيرة من الطلبة والتلاميذ تخترق الصعاب قبل الحدود لتصل إلى منابع العلم والمعرفة وكانت تونس قِبْلَةً لأكبر عدد من هؤلاء. فما هي أسباب تركز الهجرة العلمية الجزائرية في اتجاهها نحو تونس أكثر من غيرها من البلاد العربية والإسلامية الأخرى كالمغرب ومصر وغيرهما ؟

إذن يمكننا القول باجتماع عدة أسباب تحكّمت في تركّز الرحلة العلمية للجزائريين على تونس؛ والتي تتمثل في اقتفاء أثر السابقين حيث كانت الدروب معلومة بين الحواضر الجزائرية وتونس منذ قرون مثلما وضحها أبو العباس أحمد بن أحمد الغُبريني في عنوان الدراية في محور الفقه على سبيل المثال حيث نجد أن "جل تراجم الكتاب تدور حول الفقهاء الذين كانت تزدان لهم بجاية وتونس"،[1] والتعلّق بالعلم، والقرب الجغرافي، وحب الوطن، ورفض الاستعمار.

تتعدد أسباب اتخاذ الرحلة العلمية من الجزائر منطلقا ومن تونس مقصدا، فمنها ما هو متعلق بالأوضاع السائدة بالبلدين، ومنها ما هو متعلق بعامل الاستعمار وبطبيعته في القطرين، ومنها ما هو متعلق بتاريخ العلاقات بين القطرين، ومنها ما هو متعلق بالعامل الجغرافي، ومنها ما يرتبط بالجانب الاجتماعي الذي يجمع بين الجزائر وتونس، ومنها ما هو متعلق بالوضع الثقافي والسياسي في تونس، ومنها ما هو متعلق بوزن جامع الزيتونة وتأثير شيوخه وغزارة علمهم.

كان لتونس تأثير في نهضة المغرب العربي؛ ذلك لما شهدته في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين من جو علمي، وسياسي، وأدبي حي لا يوجد مثله في المغرب،[2] وهو الأمر الذي كانت له انعكاساته على الجزائر باتساع دائرة الهجرة ولا سيما منها العلمية والتي اجتمعت فيها عدة أسباب نحددها فيما يلي:

السبب الثقافي: مما يميز الأوضاع السائدة بتونس في الجانب الثقافي نجد أوضاع العلم والثقافة هناك أفضل وأرحب مجالا واهتماما بالعلوم إذ أن "حال الجزائر أقل وأضعف في العلم منذ القدم مقارنة بحال تونس، حيث كانت تونس في كل عصر غرّة الجميع، وأهلها أقرب إلى التحقيق وإلى التقدّم السريع"[3] وهي الفكرة ذاتها التي يشير إليها أبو القاسم سعد الله باعتبار " أن الاستعمار الفرنسي لم يؤثر على الثقافة العربية في تونس والمغرب بفعل دور جامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في المغرب في تحصين البلدين ضد فعالية الاستعمار في كل منهما، ووجود هاتين المؤسستين يعود إلى ما قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، ولكن استمرار وجودهما بعد الاستعمار الفرنسي جعل دورهما أكثر إيجابية، أما الجزائر فلم تكن

---

[1]– أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ص41.

[2]- محمد علي دبّوز، **نهضة الجزائر الحديثة** وثورتها المباركة،ج2،المطبعة العربية،ط1،الجزائر،1971م، ص16.

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، **أليْس الصبح بقريب**، المصرف التونسي للطباعة، 1967، ص 99.

تتمتع بمؤسسة دينية – تعليمية عريقة كالتي ذكرناها لا قبل ولا بعد الاحتلال الفرنسي"[1] اللهم إذا استثنينا دور المؤسسات الدينية المحدودة التأثير والأدوار كالزوايا والمساجد والتضييق الذي حصل عليها بعد الاحتلال، فكان في الجزائر – بدل تلك الجوامع – ازدهار الطرق الصوفية.[2]

كما ترتب عن السياسة المطبّقة من طرف الاستعمار الفرنسي بالجزائر على الجانب الثقافي غياب نخبة جزائرية لتدافع عن المصالح الذاتية والحضارية للجزائريين عامة وللمثقفين خاصّة بفعل سياسة النفي والإبعاد التي مارسها العدو ضد كل من يلمس فيهم خطرا عليه[3]وهجرة الآخرون عندما فشلوا في التغلّب على الحضارة الجديدة متوجهين إلى قواعد الثقافة التي تلائم تكوينهم، ولم تحن سنة 1848 حتى لم يبق في الجزائر من المثقفين سوى من لا أنياب لهم ولا قلم.[4]

لم تكن السياسة الفرنسية في الميدان الثقافي مقتصرة على إبعاد المثقفين الجزائريين عن مراكز التأثير هامّة كانت أم بسيطة بل تعدّتها إلى الاحتكار الشامل والتام للتعليم وللمناصب الدينية وهي مجالات الظهور والعمل بالنسبة لأصحاب الثقافة الوطنية، إذ أن نتيجة الحروب المتوالية وموقف الفرنسيين من المساجد والزوايا أن وصل الاستعمار لما كان يصبوا إليه وذلك بحدوث نكسة كبرى في ميدان التعليم بهجرة العلماء، أو حملهم السلاح أو صمتهم، فأمم المحتلون المؤسسات التعليمية والدينية كالمساجد والمكتبات وكل دور العلم وتحكمت السلطات الفرنسية في مقاليد الأمور بشكل مطلق ومباشر إذ أضحت هي التي تختار من يقوم بهذه الوظائف[5] فانفتح الباب على مصراعيه للتشويه في الدين ونشر مختلف عوامل تهديم الانتماء الحضاري العربي – الإسلامي للجزائريين، " فقضى الاحتلال بذلك على الدراسات المسجدية باستيلائه على المساجد نفسها ولم يبق إلا على دراسات الكتّاب في بدائيتها الأولى، ولذلك اضطر الجزائريون الذين أتيحت لهم الفرص إلى الاغتراب في سبيل التعليم العربي، فكان بعضهم يذهب إلى الأزهر ويتوجه آخرون إلى القرويين ولكن أغلبهم – ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى – كانوا يؤمّون الزيتونة بتونس".[6]

وعليه فمن لم تسمح له ظروفه بالترحال إلى جامع من تلك الجوامع كان مصيره الاندثار أو الضياع في غياهب الزوايا والطرق الصوفية التي أحكم عليها الاستعمار سلطته، فأصبحت مؤسسات بتقاليدها ذات أهداف سلبية عكس ما كانت عليه قبل الاحتلال في الغالب الأعم.

أمام سياسة التجهيل الواسعة التي مارستها السلطات الاستعمارية لم يعد بإمكان التعليم العربي الحر أن يكفي لحاجة الجزائريين، ولا سيما الطفولة المشرّدة التي لا تجد مأوى ولا بقعة في المدارس الفرنسية

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، **أفكار جامحة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 56.

[2]– أبو القاسم سعد الله، **قضايا شائكة**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990، ص 126.

[3]– سعد الله، **أفكار**...، مصدر سابق، ص62.

[4]– نفسه، ص60.

[5]– سعد الله، **أفكار**...، نفسه، ص70.

[6]– سعد الله، **تجارب في الأدب والرحلة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص 41.

الرسمية والعربية الحرة، ومع ذلك فإن الاستعمار لم يتردد في تسديد سهامه إلى التعليم العربي الحر، هذا بالإضافة إلى أن المتعلمين في هذا النوع من التعليم لا يستطيعون أن يجدوا مهنة تخولهم من الحق في كسب العيش[1] ما تخوله الشهادة الابتدائية الفرنسية.[2]

بهذه السياسة كان الاستعمار الفرنسي وحيد عصره وفريد كل العصور، إنه استعمار من نوع آخر لا ينبِّؤك عنه مثل عرب شمال إفريقيا وعلى وجه التخصيص والدقة عرب الجزائر، إذ استبدّ بهم " استعمار يحارب الديانة كما يحارَب الوباء والطاعون في الأمم المتمدنة ويقاوم الثقافة العربية كما تقاوم أخطر الآفات الاجتماعية، ويطارد روادها كما تطارِد السباع والوحوش المفترسة المخيفة الجانب، فما كان من الطلبة الجزائريين إلا الاتجاه إلى إحدى الجامعتين الإسلاميتين بالمغرب العربي، جامعة الزيتونة أو جامعة القرويين، فحيل بين الجزائريين في وطنهم وبين نور العلم الذي اتفقت أمم الأرض على تيسيره لجميع الناس في جميع أنحاء العالم.[3]

بحكم قرب البلاد التونسية من الجزائر كان هناك تزاحم وتبادل بين القطرين في كل شيء وعلى كل حال وفي كل العصور، وعليه فللعامل الجغرافي تأثيره الكبير في جعل تونس بجامعها الزيتونة قبلة للجزائريين عموما وللطلبة خصوصا، ذلك بفعل قرب مدينة تونس من الحواضر الجزائرية الشرقية، فتعدد المقبلون على جامع الزيتونة وعلى المدارس الأخرى.[4]

نفس هذا العامل أشار إليه سعد الله في 'رحلته' ..." لذلك اضطر الجزائريون الذين أتيحت لهم الفرص إلى الاغتراب ... ولكن أغلبهم كانوا يؤمون الزيتونة بتونس لعدة أسباب منها قرب هذا الجامع الكبير منهم "، كما أشار في هذا الإطار إلى " انتشار التعليم العربي الأولي بشكل واسع في مقاطعة قسنطينة المجاورة لتونس بخلاف الجزائر الوسطى والغربية فقد كانت متخلفة نسبيا إذا استثنينا تلمسان من مقاطعة وهران".[5]

وهران".[5]

السبب السياسي: كان للسياسة الاستدمارية الممارسة من طرف الاستعمار الفرنسي في الجزائر ضد مقومات الأمّة خاصة الدين واللغة، دورا قويا في توجيه الهجرة العلمية الجزائرية نحو تونس، فنظرا للوضعية الخاصّة التي عاشها الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي الذي لم يكن من أهدافه إعاقة اللغة العربية عن الازدهار فقط، ولكن وأد هذه اللغة وإحلال لغته بديلا عنها ليهيمن ثقافيا وسياسيا واقتصاديا. نظرا لهذه الوضعية اضطر الجزائريون إلى مغادرة وطنهم كرها لطلب العلم تارة من المعاهد المجاورة كالزيتونة بتونس والقرويين بفاس حفاظا على العروبة والإسلام، وتارة أخرى للنضال في سبيل القضية

---

[1]– هذا خاصة إذا عرفنا أن السواد الأعظم إن لم نقل كل حاملي الشهادات من المدارس العربية الحرة كانوا يتجهون إلى مهنة التعليم والإمامة.

[2]– محمود بوزوزو، **الانبعاث الإسلامي في الجزائر محل إلهام وهدف للسهام**، جريدة المنار، السنة 02، العدد 15، ص 01.

[3]– المطالع، **الطلبة المسلمون يضطهدون**، جريدة المنار، السنة 01، العدد 19، ص 02.

[4]– الجابري: **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م – 1962م**، الدار العربية للكتاب، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس والجزائر، 1983م، 23.

[5]– سعد الله، **تجارب**...، مصدر سابق، ص 41.

الوطنية من خلال الكتابة في الصحف التونسية والمشرقية، أو من خلال الانخراط في الأحزاب الوطنية ببلاد المهجر (إعطاء أمثلة ونماذج عن ذلك) لاكتساب التجربة – من جهة – وضمان مساندة القضية الجزائرية – من جهة ثانية.[1] إلى جانب هذه الأسباب أضيف سببا آخر جعل تونس مقصدا في أغلب الحالات للطلبة الجزائريين، ومعبرا نحو المشرق لعدد من الطلبة، وهو سبب يتعلّق بالجامع نفسه، حيث أن طلّاب العلم من الجزائريين يرون في طلب العلم من الزيتونة واجبا لا بد منه، كما يمثل ضرورة فرضها ظروف الاحتلال من جهة، كما أن الوفود الطلابية الجزائرية بتونس تمثل البديل الذي لا بد منه . "فالزيتونة هي ملتقى المسلمين في عبادتهم وناديهم إذا انتابهم أمر من الأمور، ومدرستهم التي يتلقون فيها مبادئ دينهم وفرائض شريعتهم وقانون مجتمعهم وتنظيم بيئتهم، ومركز قيادتهم وتعبئة جيوشهم وما إلى ذلك من مهام شؤونهم".[2]

كما أضيف لهذا السبب المتعلق بجامع الزيتونة بحد ذاته نقطة هامة جعلت أغلبية الجزائريين يستقرون في رحلتهم العلمية بتونس وتحديدا في رحاب جامع الزيتونة، وهي المتعلقة بطبيعة البرامج والمناهج المدرّسة والمعتمدة في الجامع، وهي البرامج والمناهج التي استقرّت بعد سلسلة من الإصلاحات التي نادى بها الطلبة كما نادى بها شيوخهم،[3] فضلا عن وزن شيوخ الجامع وكفاءاتهم الكبيرة، وهم الذين بلغت سمعتهم الأدبية والعلمية الأقطار وإدراكهم لطريقة العمل التي تجعلهم بعيدين عن الاصطدام بأجهزة المراقبة ومن ثم بالسلطات الحاكمة، وتنوع مواد التدريس، خاصة مع ظهور حركة مطلبية لإصلاح التعليم في الجامع والتأثير الفكري والروحي للجامع وشيوخه على الطلبة.

فضلا عن هذا نضيف نقطة هامّة أخرى تتعلق بجامع الزيتونة وهي حيوية النشاط العلمي لدى الطلبة وحرية النشاط النقابي داخل الجامع ومعاهده، حيث شهد الجامع إنشاء جرائد ومجلات ينشر فيها الطلبة إبداعاتهم الفكرية والأدبية في شتى الفنون ومجلات الفكر، كما شهد عدة جمعيات طلابية ومنها "جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين" التي تأسست في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، والتي كانت امتدادا ومحضنا خصبا للشباب الجزائري ذوي الثقافة العربية – الإسلامية ومن ثم لنشاط الحركة الوطنية في الجزائر تحديدا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب، فكانت هذه الجمعية الطلابية خزّانا تتزود منه الحركة الوطنية بالرجال.

بناء على هذا فجامع الزيتونة مَقَرٌ جامعٌ للمسلمين، فيه يتكون الحُكّام والقُيّاد والعلماء، وفيه يتم التشاور في قضاياهم واتخاذ قراراتهم، ومركز توجيه وانطلاق جيوشهم والاهتمام بسائر شؤونهم، لذلك بالضبط بنيت المساجد في الإسلام، فهي مقر قيادة في شتّى الميادين، فمنها يصدر القرار السياسي

---

[1]– محمد صالح الجابري: **الأدب الجزائري المعاصر**، دار الجيل للطباعة والنشر لبنان، 2005، ص 07.

[2]– محمد الشاذلي النيفر، "**زيتونة يكاد زيتها يضيء**"، جريدة الزيتونة، السنة 01، العدد 02، نوفمبر 1953، ص 01.

[3]– للتوسع أكثر في أهم الحركات المطلبية الإصلاحية بجامع الزيتونة انظر: مختار العياشي: **البيئة الزيتونية 1910 – 1945م**، ترجمة حمادي الساحلي، دار التركي للنشر، تونس، 1990م.

والأمر العسكري والشأن القضائي، وتُرعى فيه مسائل المجتمع وتُثير للسالكين دروب العلم، كما تمثل النهضة الحاصلة بتونس، وكثرة مدارسها العصريّة، وأساليبها الحديثة في التربية والتعليم وكثرة نواديها العلمية، الأدبية والسياسية، وصحافتها الحرّة الحارّة،[1]حيث كانت صحفها العربية الوطنية تلهب الأمة التونسية في كل صباح وفي كل مساء بمقالات الشيخ الثعالبي النارية، وبمقالات وقصائد كتابها المجاهدين كما كان في تونس من الصحف العربية الوطنية ما يليق لكل الطبقات كجرائد: الأمة، ومرشد الأمة، والصواب، ولسان الشعب، والاتحاد، والنديم، والزهرة، وجحا، والزهو، وغيرها... كما استقطب الطلبة الجزائريين مدارس أخرى تهتم بالعلوم الحديثة كالرياضيات والفلك والكيمياء واللُّغات الأجنبية وغيرها من العلوم...،[2] وقد لا يكون من المغالاة في شيء إدراج مجلة الفكر واحتسابُها في عداد أهم المجلات الإعلامية التي خدمت الثورة الجزائرية، وعملت على تكوين أدب مغربي ثوري، وأتاحت للكتاب الجزائريين فرصة المناضلة بأقلامهم وفتح جبهة فكرية على صفحاتها لممارسة حقهم في الدفاع عن وطنهم، كما أتاحت للكتاب التونسيين مجال الإسهام في معاضدة أشقائهم والتضامن معهم عمليا وأدبيا وفتحت صفحاتها لجميع الكتاب العرب والأجانب الذين آزروا الثورة تأكيدا منها للبعد العربي والإنساني لهذه الثورة.[3]

إذن فالشهرة الدينية والثقافية لجامع الزيتونة في المغرب العربي كمعقل إسلامي عربي قديم[4] جعلت منه مأزرا هاما للتزود بالعلوم والأدب والتكوين... كما كان للجامع فضل عام على جميع المعاهد في المشرق والمغرب حسب ما بيّنه أحد الطلبة الجزائريين الزيتونيين في كلامه عن جامع الزيتونة بقوله: " جامع الزيتونة أقدم الكليات الإسلامية الثلاث، ومنه انبعث الضوء نحو المغرب فتأسس بفاس جامع القرويين ثم انفصل نور نحو المشرق ازدهر بالقاهرة، فكان الجامع الأزهر، فلجامع الزيتونة الفضل العام على العالم الإسلامي".[5]

كما أن شهرة جامع الزيتونة ومكانته حصلت بفعل النخبة الهامة من الشيوخ والعلماء التي كانت تعجُّ بها حلقات الدروس ومجالس العلم بالجامع، فأنارت المُدلهمّات، وشحذت الهمم والعقول وكونت جيوشا من الطلبة والعلماء الذين أصبحوا عُدّة الإصلاح في أوطانهم، فحرروا الدين واللغة والوطن والإنسان، ذلك ما أشار إليه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي حيث نسب نفسه إلى الجامع رغم أنه لم يتخرّج منه، ولا حتى درس فيه، فجعل من الشيخ محمد العزيز الوزير صلة وثيقة بينه وبين الزيتونة كونه درس على يده وقد كان الشيخ الوزير يمثل أحد أعمدة الزيتونة وكوكبا من كواكبها بالمدينة المنورة، حيث يقول

---

[1]– محمد علي دبّوز، مصدر سابق، ص14.

[2]– نفسه، ص 16، 17.

[3]- محمد صالح الجابري، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، دار الغرب الإسلامي، ط1، لبنان، 1990، ص181.

[4]– سعد الله، **تجارب**...، مصدر سابق، ص 36.

[5]– مبارك الميلي، المجلة الزيتونية، المجلّد الأول، الجزء السابع، مارس 1937، ص 47.

الشيخ الإبراهيمي فيه: "وإننا نحمل لهذه الأوطان الجامعة من الاحترام والتقدير ما لا نحمله لديارنا ومُتَبَوّأ صَغارنا ... فأنا لم أتخرّج في جامع الزيتونة، ولم أقرأ فيه حرفا، ولكنّي تخرّجت بالمدينة المنوّرة على أضواء كواكب الزيتونة في وقته، ولا أحابي الشيخ محمد العزيز الوزير التونسي فكانت لي بسببه صلة بالزيتونة مرعية المتات، آمنة الانبتات... إننا نفهم من جامع الزيتونة والأزهر وغيرهما أنهما أوطان جامعة للمسلمين، تذوب فيهما الاعتبارات الفارقة وتموت بين جدرانها النزعات المارقة، فما ثَمّ إلا الإسلام ولسانه.[1]

وإلى جانب هذا الكوكب نذكر: "محمد بيرم، مصطفى بيرم، صالح النيفر، الشاذلي بن صالح، عبد العزيز الثعالبي، أحمد النيفر، الطيب النيفر، محمد النخلي، محمد بن يوسف، الشيخ القمّودي ومحمد بن عاشور الذي كانت له موهبة فذّة وذاكرة قوية نادرة تدل على سعة الإطّلاع وتعمّق في الدرس،[2] كما كان مثالا للمعلّم المجتهد المربي الحريص على مستقبل مريديه إذ يقول: ... فأي طريق نجده يوصل إلى الغاية في أمد أقصر وُجِب علينا سلوكه وأن نرشِد إليه أبناءنا المتعلّمين الذين جعلوا مستقبلهم بأيدينا،[3] بالإضافة إلى محمد الفاضل بن عاشور، الصالح بن مراد، سالم بوحاجب، أحمد بيرم، محمد الصالح المالقي، عبد العزيز النيفر وعلي النيفر[4] ومحمد بوشارب ومحمد بن سلمان ومحمد العربي الماجري[5] والمختار بن محمود والشيخ الحاج أحمد العيّاري والشيخ الزغواني ومحمد اللقاني الجائري وعثمان بن الخوجة الطيّب سيّالة وعثمان الكعّاك والشيخ عثمان بن المكّي التوزري الذي يصفه الأحمدي نويوات؛ وهو أحد الطلبة الزيتونيين الجزائريين الذين درسوا لدى الشيخ؛ قائلا: كان رجلا صالحا، وكان يقول لنا نحن تلامذته " كنت أرى الرسول صلّى الله عليه وسلّم كل ليلة في المنام فصرت أراه من شؤمكم ثلاث مرات في الأسبوع فقط"،[6] كما قال العالم المصري محمد بن مصطفى الأزهري إثر زيارته تونس: " لو سُئِلْتُ عن ثلاث لأجبت بِلا ولو قُطع رأسي، ... لو قيل لي: وهل رأيت أصلح من الشيخ إبراهيم اللقّاني لقلت لا...".[7]

الازدهار الثقافي والحرّية النقابية في جامع الزيتونة: ظَلّ جامع الزيتونة طيلة ما يربو عن ثلاثة عشر قرنا منذ تأسيسه عام 735م إلى 1961م مقصدا لكل من ألمّت بهم تصاريف الدّهر، فبالإضافة إلى دوره الديني كان له كذلك دور علمي، فكان لهذا المركز الحضاري الهام في شمال إفريقيا تأثير كبير

---

[1]– محمد البشير الإبراهيمي، جريدة البصائر، 22ماي 1936.

[2]– محمود شمّام، **أعلام من الزيتونة**، المطابع الموحّدة، تونس 1990، ص 97.

[3]– محمد الطاهر بن عاشور، **أليس** ...، مصدر سابق، ص 171.

[4]– محمد العزيز بن عاشور، **جامع الزيتونة، المعلم ورجاله**، المطابع الموحّدة، تونس، 1991، ص ص 127– 129.

[5]– المجلس الإسلامي الأعلى للجمهورية التونسي، مجلة الهداية، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، عدد 126، السنة 12، جويلية وأوت 2004، ص97.

[6]– نجيب بن خيرة، **الأديب موسى الأحمدي نويوات**، دار هومة، الجزائر، 2003، ص40.

[7]– ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، ط1، 1986، ص15.

على الكثير من الحركات الوطنية ليس في المغرب العربي فقط، بل في كامل البلاد الإسلامية، فكان "... الجامع المفرد والمفرد الجامع، روض العبادة ومعبد الرياضة... بستان علوم زهر دوحتها الفتح وثمارها الإفاضة... ما سرح ناظر المؤمن في أثنائه إلا امتلأ علما... قائد حِلق الدروس...لا عيب فيه غير أنه غدا بين أقرانه بمرتبة الصدر واختص بأن يشرح لورديه الصدر فما ضاق صدر مهموم ودخله إلا انفرج وانفتحت له بلطيف عنايته أبواب الفرج".[1]

كانت الجامعة الزيتونية تَرْعَد فيها الحلقات بالمعلمين المتحمّسين والشيوخ العظماء، وقد كان لهم تأثير كبير في استقطاب الطلبة الجزائريون إلى تونس للدراسة بالزيتونة وفروعها، ففي تلك الظروف والحالة من الشّظف الثقافي " نَظَرَتْ الجزائر من حولها ملهوفة تبحث عن موارد العربية والدين فوجدت تونس الخضراء قد نضجت نهضتها وازدهرت فيها الجامعة الزيتونية".[2]

كما أن للبرامج المدرّسة ولمناهج التعليم في جامع الزيتونة تأثير على استقطاب الطلبة الجزائريين للدراسة في تونس، وما تجب الإشارة إليه هنا هو الإصلاحات العديدة التي حصلت في مناهج وبرامج التدريس على مستوى الجامع ومعاهده، فضلا عن "الدعم والاهتمام الذين كان يتلقاهما قطاع التعليم من ولاّة تونس إذ يقول صاحب الرحلة الورثيلانية في هذا الصدد: نِعْمَ سلاطين تونس وأمرائها وأصحاب الدولة فيها؛ صرفوا همهم إلى العلم وأقاموا منائر عزه، فبنوا المدارس وأوقفوا الأحباس، وأعزوا العلماء".[3]

اتساع ودور الجالية الجزائرية بتونس: أمام وجود جالية جزائرية كبيرة مستقرة بتونس، خاصة بالمدن الحدودية وببعض المدن التونسية الهامة كتونس وبنزرت وماطر والقيروان... حصل انصهار عائلي كبير بين الجزائر وتونس تجلّى في علاقات المصاهرة الكثيرة بين الأسر الجزائرية والتونسية وهو ما وسّع ومتّن من دائرة العلاقات بين البلدين،[4] وهو الأمر الذي كان في صالح الطلبة الجزائريين هناك، حيث كان يتلقّى الطلبة مختلف أشكال المساعدات المادية والدعم المعنوي من التجار والعائلات الجزائرية القاطنة هناك بتونس.[5]

لم تكن الظروف الاقتصادية الصعبة – الغير ميسورة ولا للظروف الاجتماعية القاهرة عائقا أمام الطلبة الجزائريين المتجهين إلى خارج الجزائر تركيزا نحو تونس إذ بالرغم من السياسة الاستعمارية التي جعلت أوضاع الجزائريين المادية جد مزرية، إلا أنهم كانوا يحتفظون بمبالغ تغطي جزءً من تكاليف السفر

---

[1]– **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، مجلد1، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيروت، 1984م، نقلا عن محمد العزيز بن عاشور، **جامع الزيتونة المعلم ورجاله**، دار سراس للنشر، مطابع الوحدة، تونس، 1981م، ص5.

[2]– دبّوز، **نهضة الجزائر**...، مصدر سابق، ص ص 15، 17.

[3]– الحسين بن محمد الورثيلاني، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، تصحيح محمد بن أبي شنب، ط2، دار الكتاب العربي، 1974، ص 662.

[4]– لعلّ من بين أهم مظاهر هذا الانصهار والتلاحم والتأثير والتأثر بين القطرين الشقيقين– تونس والجزائر – هو وجود عدة ألقاب جزائرية واسعة الانتشار إلى اليوم في تونس منها: جزيري، قسنطيني، سوفي، القلي...، وألقاب تونسية واسعة الانتشار إلى اليوم في الجزائر وبخاصة في المدن الشرقية منها: تونسي، بن عاشور، قيرواني. الباجي، كافي ..

[5]– سعد الله، **تجارب**...، مصدر سابق، ص 41.

في سبيل طلب العلم على حساب صرفها للتخفيف من حدّة الجوع أو غيره من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية.

كما أن سياسة التفكيك للبنية الاجتماعية، والقضاء على عوامل الوحدة بين الأسر والعائلات الجزائرية لم تثن من عزيمة وإرادة الجزائريين، سواء تعلّق الأمر بهم داخل الوطن أو خارجه، وذلك ما تجلّى من خلال تشجيع أوائل الطلبة الجزائريين الزيتونيين لإخوانهم الجزائريين بالاتجاه نحو تونس بل ومساعدتهم لمن هم بحاجة إلى المساعدة ولا سيما الطلبة الجدد،[1]كما كان يتلقى الطلبة الجزائريون مختلف أشكال الدعم المادي من طرف الأسر التونسية، هذا فضلا عن بروز نشاط اقتصادي واسع بين الأسر الجزائرية ولا سيما في الجانب التجاري الذي اشتهر به السوافة خاصة .

تأثير رواد الحركة الإصلاحية: كان لرواد الحركة الإصلاحية في الجزائر وللطلبة الجزائريين الزيتونيين سواء المتخرجين أو العائدين إلى الجزائر خلال فترات العطل تأثير في توجيه الرحلة العلمية الجزائرية صوب تونس، حيث كانت توجه جموع الطلبة إلى جامع الزيتونة ومختلف فروعه ليُلَقَّنوا العلوم وليتسلحوا بالعلم أقوى الأسلحة وأدومها، وعلى غرار ذلك كان الشيخ ابن باديس حيث أعطى بنشاطه رفقة أقرانه في نشاط الإصلاحي الفكر التحرري والثوري في الجزائر مفهوما جديدا لا يقتصر على العمل المسلّح فقط بل رأى بأنه هناك وسائل أشدّ وقعًا وإيلامًا على الاستعمار وأكثر وأوسع تأثيرا وهي الوسائل التي تُحَرِّر العقول والصدور قبل الأوطان والقصور... فأثبت نشاطه الإصلاحي بأن الكفاح المسلّح والتحرّر من الاستعمار يرتكز أساسا على أبناء الوطن المُسْتَعْمِر قبل أن يكون على السلاح المستورد مهما كان حجمه وتطوره، فاستهدفت جهوده الإصلاحية كل ما له علاقة بالإنسان وكأنه يقول بأن الفكر الثوري لا يُسْتَوْرَد ولا يُهْدَى، وإنما ينشأ مع الإنسان في ظل الظروف التي يعيشها فيتبلور ويتمخّض ليُحْدِثَ بعدها زلزالا يُهَدّم عرش المُسْتَعْمِرين والظالمين.[2] إذ كان لزيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس لمنطقة قْمار في الثلاثينيات من القرن العشرين أن " أذكت روح النهضة في القرية، ونتيجة لذلك ولانتشار الحركة السياسية الوطنية ولتأثير الحرب العالمية الثانية، سافر عدد من شبّان قمار إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، وكان هؤلاء الشبان يعودون في صيف كل عام فيتّصلون بشُبّان جُدد وينشرون بينهم أفكارا جديدة، فكان عدد الذاهبين إلى تونس يزداد في كل سنة".[3]

استهداف السياسة الاستعمارية للدين والتعليم: كان في استطاعة المدرسة الفرنسية أن تجلب الجزائريين إلى الثقافة الفرنسية وبالتالي إلى قضية الاستعمار، وقد كانت أفكار بعض منظري السياسة الفرنسية تصب في هذا الاتجاه، وقد كان هذا ممكنا وسهلا بفعل تقهقر التعليم التقليدي في الجزائر

---

[1]– الجابري، **النشاط...**، مرجع سابق، ص 42.

[2]- علي بن حراث، **أعمال الملتقى الدولي حول "الفكر السياسي عند الإمام عبد الحميد بن باديس"**، قسنطينة يومي 18 و19 ماي 2012، ص173، 178.

[3]– سعد الله، **أفكار...**، مصدر سابق، ص 44.

وضعف وسائله ومعارضة المعمرين ورفض المسلمين إرسال أولادهم إلى المدارس الفرنسية،[1] إلا تركيز الاستعمار الفرنسي على استهداف الدين الإسلامي والتعليم العربي من خلال تشجيع الطرقية والتضييق على الكتاتيب وغلق زوايا التعليم ومعاقبة كل من يقوم بهذا العمل، وفي هذا الإطار عمل الاستعمار على ضرب روح الأمة الجزائرية، حيث" كانت السلطات الاستعمارية تُركّز على تشجيع الطرقية التي استفحل خطرها إلى أن ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م حيث كان الطرفان (الجمعية والطرقية) ضدّان لا يلتقيان أبدا".[2] فبعدما كان التعليم منتشرا في كل أرجاء الجزائر قبل الاحتلال (1830) خاصة المدن: الجزائر، قسنطينة، مازونة، وهران، تلمسان، بجاية، بسكرة، مناطق جرجرة ووادي ميزاب بالصحراء بنوعيه الابتدائي، الثانوي والعالي، قام بضربه وتهديم كل مؤسساته، مما أدّى إلى تراجع مستوى التعليم، ذلك ما اعترف به الفرنسيون أنفسهم في تقاريرهم،[3] على العكس من ذلك في تونس حيث تنتشر عدة مدارس تكاد تغطي جميع المدن والقرى التونسية، وبخاصة المدينة العاصمة بالقطر حيث تتوفر على "جامع كبير في غاية الجمال والسعة، كثير المستخدمين عظيم الموارد... وفيها عدة مدارس للطلبة وبعض الزوايا للمريدين والمتنسكين...[4]

من هذه الحقيقة نخلص إلى أنه لطبيعة الاستعمار الفرنسي في الجزائر دور كبير في ضرب التعليم والإسلام بها، حيث كان يضيِّق على الحركة الثقافية ويراقب كل حركة وسكون للجزائريين، فبعد الوضع السياسي الذي ركّز عليه، كان الدين الإسلامي الهدف الثاني وذلك بالضغط عليه، معتبرا أنه لا يمكن أن يكون هناك استقرار سياسي إلا بإجراء تحويل ديني إلى المسيحية أو إلى الانحلال والتمييع.[5]

التهرّب من الخدمة العسكرية: لقد كانت تونس وجهة العديد من الشباب الجزائريين للدراسة في جامع الزيتونة هروبا من سياسة التجنيد في الخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش الفرنسي، مثلما وقع الأمر مع ابن باديس.[6]

وقد شهد عدد الطلبة الجزائريين ارتفاعا منذ بداية الثلاثينيات من القرن العشرين وهو ما كان محل تعاليق في مختلف المراسلات المتبادلة بين الإقامة العامة بتونس والسلط الفرنسية بالجزائرية،[7]والتي تمت

---

[1]- محفوظ قداش، **جزائر الجزائريين؛ تاريخ الجزائر، 1830 - 1954**، المؤسسة الوطني للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 2008، 181.

[2]- عبد الرحمان شيبان، **مقابلة شخصية** بمكتبه بمقر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالجزائر العاصمة، فيفري 2007.

[3]- رابح تركي، **الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ، ص 121 - 126.

[4]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج2، ترجمة محمد حجي الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983، ص76.

[5]- أحمد الخطيب، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 48.

[6]- سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية (1900- 1930)**، دار الآداب، لبنان، 1969، ص 24.

[7]- **المركز القومي الجامعي للتوثيق، السلسلة H 25 الصندوق 32 و33**، نقلا عن مختار العياشي، **البيئة الزيتونية 1910- 1945**، ترجمة حمّادي الساحلي، دار التركي للنشر، تونس، 1990، ص91.

فيها الإشارة إلى بعض "الأفراد الغير مرغوب فيهم" الواجب ترحيلهم إلى الجزائر، وذلك عند حصول أي اضطراب بجامع الزيتونة أو على مستوى الساحة السياسية بتونس.[1]

ففي أوائل الثلاثينات بلغ عدد الطلبة الجزائريين؛ حسب الإحصاءات الرسمية، 200 طالبا، وفي سنة 1938 ارتفع إلى 250. وسجل أكبر عدد من الطلبة الجزائريين في الفروع القريبة من الحدود التونسية – الجزائرية، مثل فرعي الكاف وتوزر، حيث كانت توجد جالية جزائرية قليلة العدد، وفي سنة 1952 ارتفع عدد الطلبة الجزائريين إلى 1500 طالبا، ولم يتجاوز عدد الطلبة المغربيين والطرابلسيين بجامع الزيتونة خلال الفترة المذكورة سابق 50 طالبا.[2]

عَرَفَ جامع الزيتونة وفروعه ارتفاعا في أعداد الطلبة المقبلين عليهما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو الأمر الذي أدى بإدارته – وعلى رأسها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور– إلى فتح معاهد جديدة ملحقة بالجامع، فتضاعف عددها أكثر من ثلاث مرات منذ سنة 1949م إلى سنة 1956م ووصل إلى ثمانية وعشرون فرعا – بعدما كان عددها تسعة فروع – منتشرة في تونس بل تعداها إلى التراب الجزائري، وذلك بإلحاق معهد ابن باديس ومعهد الكتانية الموجودين بقسنطينة،[3] ومن جملتها معهدين للفتيات أحدهما بمدينة تونس والآخر بصفاقس، وما يلاحظ على خريطة التوزيع الجغرافي للفروع الزيتونية هو تمركز ست منها بتونس العاصمة، وانتشار تسعة أخرى (بما فيها معهدي ابن باديس والكتانية) على طول الخط الحدودي بين الجزائر وتونس مع توزع بقية المعاهد بشكل منتظم عموما يغطي كافة مناطق تونس مع ملاحظة تركز ستة منها بمدينة تونس.[4]

ملاحظة:

توجد هنا خريطة تَوَزُّع معاهد جامع الزيتونة كاملة بعد 1945م.(يتم عرضها بجهاز العرض)

كما قصد الجزائريون تونس بغرض التداوي حيث كان القطر التونسي مقصد الميزابيين في ذلك العهد في طب العيون وكثيرا ما كان المرضى يستقرون لمواصلة الدراسة كما كان شأن ابراهيم بن بكير حفار.[5] حفار.[5]

مهما اختلفت أوجه الاستعمار وأنواعه فإنه يبقى يحمل معاني السيطرة والغطرسة والتهديم المعنوي – الحضاري والتخريب والاستغلال الماديين، إلا أن حقيقة يجب تحديدها وإدراكها وهي أن اختلاف السياسة الاستعمارية الفرنسية الممارسة من مستعمرة لأخرى لها من التأثير السلبي على مستعمرة دون الأخرى، وعلى ذلك نجد الجزائريين يفرون من سياسة الاستعمار الفرنسي بالجزائر ليسقطوا بين أيديه بتونس، ورغم ذلك تواصلت الهجرة الجزائرية نحو هذا القطر الشقيق الذي عانى بدوره من ويلات الاستعمار، لكن

---

[1]- مختار العياشي، نفسه، ص 91.

[2]- نفس المرجع، ص 91.

[3]– بن عاشور، نفس المصدر، ص.121، انظر الخريطة.

[4]- نفس المصدر.

[5]- محمد علي دبوز، **أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1921 إلى عام 1975**، ج2، مطبعة البعث ، قسنطينة، 1976، ص253.

الممارسات الاستعمارية التي طُبِّقت وموروست على الجزائريين كانت أشد وأنكى من تلك التي طبقت في تونس والمغرب بفعل طبيعة الحكم الاستعماري المطبق في القطرين، وما بقاء حالة من الحيوية في الحياة الثقافية بهما إلا دليلا على ذلك.

تأثير النشاط الاقتصادي بين القطرين:

نتيجة لوجود أرضية العلاقة بين القطرين الجزائر وتونس سلفا منذ القديم بحكم الجوار أولا وبحكم الماضي – التاريخ – المشترك، ازدادت العلاقة انصهارا طيلة فترة الاحتلال فكانت السياسة الاستعمارية بأهدافها المضبوطة والدقيقة لضرب عرى الوحدة وروابط التواصل بين الشعبين في القطرين لتمكن لنفسها السيطرة والقضاء على كل أشكال التعاون مما أدى إلى ظهور تواصل وتعاون وتضامن أقوى.

تحولت تونس إلى مأوى لكل الجزائريين وبخاصة من فئة الطلبة، مثلما كانت الجزائر مأوى لكل التونسيين كلما اشتدّت بهم الخطوب كما هو الشأن مع الشيخ ابن روب؛ الخارج عن سلطة باشا تونس والذي اتخذ من منطقة وادي ريغ مستقرا ليحترف بعدها اللصوصية حيث شكّل مجموعة من المحاربين اللصوص منهم ثلاثون فارسا وعشرون من المشاة مزودين بأسلحة؛[1] وأخذ يعترض سبيل القوافل وحدث أن أغار على ركب جزائري كان الشيخ الحسين الورثيلاني فيه.[2]

وإذا حاولنا التركيز على العلاقات الاقتصادية بين القطرين وتحديدا بين الشرق الجزائري والغرب التونسي فإننا نجد العلاقة وطيدة إلى درجة أن لا نكاد نميز بين المنطقتين بفعل الالتحام الاجتماعي والتبادل الاقتصادي، كما أننا نجد توزع المدن الجزائرية في شكل تكاد تتناظر فيه بشكل تام مع نظيراتها في تونس، خاصة مع اشتهار المنطقتين بأسواقهما وبمراكزهما الاقتصادية التي تمر وتنطلق عبرهما القوافل التجارية نحو الشرق (تونس وليبيا) والجنوب (بلاد السودان: مالي والنيجر وشمال نيجيريا)،[3] خاصة أمام كون تونس هي أقرب الأسواق الخارجية إلى الشرق الجزائري[4] ولذلك كان تجار قسنطينة من تليين وصحراويين يفضلون التوجه إليها، وللقيام بهذه العمليات التجارية التي تعتبر أهم من النشاط الذي كان يتم عن طريق الموانئ، هناك مراكز أساسية تنطلق منها القوافل وتعود إليها وأهمها: قسنطينة، الوادي، توقرت وورقلة. وكانت المواصلات بين هذه الأسواق الرئيسية والأسواق المقابلة لها في تونس

---

[1]– مختار بن طاهر فيلالي، **رحلة الورثيلاني – عرض ودراسة**، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، د.ت،ص142.

[2]– الحسين الورثيلاني، **نزهة الانظار...**، ص 120، 121.

[3]– محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة الممتدة ما بين 1792 – 1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984، ص 160، 173.

[4]– من المعروف أنه منذ القديم إلى يومنا أن مناطق الشرق الجزائري (مقاطعة قسنطينة) تمثل أكبر حجم سكاني مقارنة ببقية المناطق، ومن ثم تشكل أوسع الأسواق الاستهلاكية.

منتظمة تنظيما دقيقا بحيث أن التاجر يجد يوميا قافلة يسافر معها ذهابا وإيابا[1]. أما الطرقات الرئيسية المتبعة فهي أربعة نذكرها كالآتي:[2]

- طريق قسنطينة – تونس مرورا بالخروب وسوق اهراس والكاف.
- طريق الوادي – قفصة – نفطة.
- طريق توقرت – نفطة – غدامس.
- طريق ورقلة – غدامس.

في الأخير يمكننا القول بأن "ما أشيع من أن الجزائريين يرفضون المدرسة ولا يأبهون بالتعليم ليس له ما يسنده، ولا يقوم على أي أساس من الصحة، فالمدرسة التي قاطعها الجزائريون هي مدرسة التبشير وليس المدرسة التي تلقن العلم... فهؤلاء الجزائريين الذين كانوا يحررون العرائض والشكاوي ويقدمونها لإدارة الاحتلال أو إلى الحكومة بباريس المتضمنة لمطالب تأسيس المدارس والإكثار من عددها قاصدين في ذلك المدارس التي تلقن العلوم والتي تتمَكِّن مقومات الشخصية الوطنية من التفتّح والنمو،[3] هم نفسهم الجزائريين الذين امتطوا الصعاب واخترقوا المسافات الطويلة وتحملوا التكاليف المادية الكبيرة وصبروا لمفارقة الأهل والولد من أجل الوصول إلى المدرسة التي أَلِفُوا دراسة برامجها في بلادهم قبل الاحتلال والنهل من حياضها، فكانت أقاصيّ البلاد العربية وأدناها مقصِدا لهم تتقدمها البلاد التونسية بجامعها الزيتونة.

لقد كان انخراط الجزائريين المهاجرين وتبوؤهم مسؤوليات مرموقة في "الحزب الدستوري التونسي" خلال مرحلة تأسيسه في سنة 1920 ثم في مرحلة تجديده في سنة 1934م، وتعرض عدد منهم إلى السجن والإبعاد بسبب الارتباط بهذا الحزب إلا مظهر شاهد على تطور هذه الصلات الفكرية بين أبناء القطرين.[4]

خاتمة: يشكل العنصر الطلابي العضو الأكثر حيوية ونشاطا في جسد أي مجتمع من المجتمعات ذلك كونه يشكل فئة الشباب ونبض المجتمع والطبقة النيّرة المفكرة وهو عقله المبدع، الطبقة التي تتفتق عقولها بأفكار البناء والتغيير في أوطانها في مختلف الظروف وبالتالي يكون عنصر قوة ونفس جديد، ذلك ما نجده تجسد في الطلبة الجزائريين الذين زاولوا دراستهم بتونس خاصة منهم الزيتونيين حيث شكلوا طرفا هاما في الحركة الوطنية الجزائرية أثناء دراستهم في جامع الزيتونة بتونس وبعد تخرجهم وعودتهم إلى أرض الوطن، وهنا نشير إلى إحدى أهم عوامل التكوين التي كان يتلقاه الطلبة بعيدا عن المقررات التي كانوا يتلقونها في برنامج التعليم الزيتوني، وهو عامل التكوين الذاتي والمستقل الناتج عن رغبة في

---

[1]– ومن ثمة فإنه من المؤكد أن هذه القوافل لم تكن تخلوا افي أغلب الحالات من القرطاس والقلم والكتب وطلبة العلم.

[2]– الزبيري، نفس الرجع، ص ص 151– 157.

[3]– جمال قنان، **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1994، ص 137.

[4]– محمد صالح الجابري، **الأدب الجزائري المعاصر**، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، 2005، ص 12.

المزيد من العلوم وفي تفجير الطاقات الإبداعية وفي صقل التكوين المتلقّى بالتجربة الخاصة والتنفيذ الميداني فكان هذا الشكل من التكوين أن أعطى الطالب شخصية قوية وكفاءة عالية ومن ثم تأثيرا كبيرا في محيطه الذي يعيش فيه أثناء مرحلة التحصيل وما بعدها.

اجتمعت عدة أسباب تتمثل في التعلّق بالعلم، وحب الوطن، ورفض الاستعمارين الفرنسي وقرينه الجهل، أن جعلت من الجزائريين تركيزا على فئة الطلبة يهجرون وطنهم ليس بحثا عن المال والأمن – لأنه لو كان هدفهم هو ذلك لكانت وجهتهم إلى دول غير مستعمرة، مزدهرة الاقتصاد – بل كانت هجرتهم إلى معاقل العلم لتنوير عقولهم ولشحذ هممهم ثم العودة إلى الوطن لخدمته وأبنائه فكان "جامع الزيتونة" – وهو ثالث ثلاث جوامع في البلاد العربية والإسلامية – الوجهة للكثير من الشباب من مختلف مناطق الجزائر ولا سيما منها المناطق القريبة من تونس، منذ القرن 19م، لتعرف بعدها هجرة الجزائريين نحو الزيتونة تنظيما من بداية الإعداد للهجرة في شكل بعثات أو بشكل فردي إلى غاية التخرج.

كما كان لهؤلاء الطلبة دورا فعّالا في تمتين عُرى وروابط الأخوة بين الشعبين التونسي والجزائري، وفي تطعيم النضال الوطني بين البلدين، وتقديم صورة واضحة لدور النخبة الزيتونية الجزائرية في الحركة الوطنية الجزائرية والثورة التحريرية، كما كان لهم دور هام في الحركة الطلابية والثقافية وفي تدعيم الصلة بين الزيتونة والجزائر الشقيقة، ومن مظاهر نشاطهم تأسيس جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين سنة 1933م ولم يقتصر دورها على مجرد نشاط ودادي أو تعاوني بل امتد إلى المساهمة في توفير أسباب (جديدة) لانتشار التعليم الزيتوني وفي تمهيد السبل للراغبين في الالتحاق به من الجزائريين؛ وذلك ما تجسد ميدانيا بتأسيس معهد ابن باديس بقسنطينة وإلحاقه بالزيتونة سنة 1947م.[1]

مصادر ومراجع العرض:

– أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية**، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.

– ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، ط1، 1986.

– أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية (1900– 1930)**، دار الآداب، لبنان، 1969.

– أبو القاسم سعد الله، **تجارب في الأدب والرحلة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

– أبو القاسم سعد الله، **قضايا شائكة**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990.

– الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج2، ترجمة محمد حجي الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983.

– الحسين بن محمد الورثيلاني، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، تصحيح محمد بن أبي شنب، ط2، دار الكتاب العربي، 1974.

[1]- بن عاشور، مصدر سابق، ص133.

- أحمد الخطيب، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- جمال قنان، **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1994.
- نجيب بن خيرة، **الأديب موسى الأحمدي نويوات**، دار هومة، الجزائر، 2003.
- محمد العزيز بن عاشور، **جامع الزيتونة، المعلم ورجاله**، المطابع الموحّدة، تونس، 1991.
- محمود شمّام، **أعلام من الزيتونة**، المطابع الموحّدة، تونس 1990.
- محمد صالح الجابري: **الأدب الجزائري المعاصر**، دار الجيل للطباعة والنشر لبنان، 2005.
- محمد صالح الجابري، **التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس**، دار الغرب الإسلامي، ط1، لبنان، 1990.
- محمد صالح الجابري: **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900م - 1962م**، الدار العربية للكتاب، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس والجزائر، 1983.
- محمد العربي الزبيري، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792 - 1830**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984.
- محمد علي دبّوز، **نهضة الجزائر الحديثة** وثورتها المباركة،ج2،المطبعة العربية، ط1،الجزائر،1971.
- محمد الطاهر بن عاشور، **ألَيْس الصبح بقريب**، المصرف التونسي للطباعة، 1967.
- محفوظ قداش، **جزائر الجزائريين؛ تاريخ الجزائر، 1830 – 1954**، المؤسسة الوطني للاتصال والنشر والاشهار، الجزائر، 2008.
- مختار بن طاهر فيلالي، **رحلة الورثيلاني – عرض ودراسة**، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، د.ت.
- مختار العياشي: **البيئة الزيتونية 1910 - 1945م**، ترجمة حمادي الساحلي، دار التركي للنشر، تونس، 1990.
- عبد الحميد زوزو، **الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919-1939)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، الجزائر، 1985.
- رابح بونار، **المغرب العربي؛ تاريخه وحضارته**، دار الهدى، ط3، الجزائر، 2000.
- رابح تركي، **الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ.

المقابلات الشخصية:

– **مقابلة شخصية مع الشيخ عبد الرحمان شيبان** بمقر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالجزائر العاصمة، فيفري 2007.

الملتقيات:

– أعمال الملتقى الدولي حول "الفكر السياسي عند الإمام عبد الحميد بن باديس"، جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة يومي 18 و19 ماي 2012.

الجرائد والمجلات:

– مجلة الهداية، المجلس الإسلامي الأعلى للجمهورية التونسية، عدد 126، السنة 12، جويلية وأوت 2004.

– المجلة الزيتونية، المجلّد الأول، الجزء السابع، مارس 1937.

– جريدة البصائر، 22ماي 1936.

– جريدة الزيتونة، السنة 01، العدد 02، نوفمبر 1953.

– جريدة المنار، السنة 01، العدد 19، والسنة 02، العدد 15.